

الفصل الثاني عشر

حلم، سلام

لقد غير الانتصار على الأحزاب والحملة ضد بني قريظة الوضع في الجزيرة حيث تم الاعتراف بقوة النبي ﷺ وأصحابه، فالبعض، مثل الفرس والبيزنطيين كانوا يتحدثون عن محمد ﷺ بوصفه «ملك العرب القوي»، حيث إنهم وجدوا فيه قوة إقليمية مرهوبة الجانب، وكان محمد ﷺ عندما تأتيه استطلاعات استخبارية بوجود خطر، لا يتردد في إرسال الحملات إلى القبائل القريبة بغية استباق أي محاولة للتمرد أو الهجوم وليوضح بذلك للعشائر المجاورة بأن مسلمي المدينة هم دائماً في حالة من اليقظة والاستعداد للدفاع عن أنفسهم.

لقد وقعت حادثة عقد عائشة - رضي الله عنها - أثناء إحدى تلك الحملات ضد بني المصطلق، في السنة السادسة للهجرة، هذه الحادثة تذكرنا، كغيرها أن الحياة والدروس تجري حسب ما تمليه إرادة الله وأن الممارسة الدينية كانت تتضح فيما كان البعد الاجتماعي للأخلاق الإسلامية يزداد عمقاً، وبقيت الصعوبات الداخلية أيضاً، لا سيما جراء أعمال بعض المنافقين الذين كانوا يحاولون استغلال أي وضع لخلق مشكلات للنبي ﷺ.

حلم

كان شهر رمضان قد أهل وأخذ النبي ﷺ، كعادته، يكثف عبادات الليل، وكان أيضاً أكثر اهتماماً بالفقراء والمعوزين، كان هذا شهر ارتقاء

روحي، كان يتلوه فيه النبي ﷺ على جبريل جميع ما نزل به الوحي، وكان يطيل فيه صلواته ويؤدي فيه صلاة التراويح⁽¹⁾. وكان هذا الشهر موسم الدعاء، حيث كان على النساء والرجال الصيام في النهار، متحررين من الخصائص التي تقترن اقتراناً مباشراً ببشريتهم: الشراب والأكل وتلبية حاجتهم الجنسية، فمن خلال سيطرة المؤمنين على حاجاتهم الطبيعية كانوا يسعون إلى الاقتراب من الصفات الرحمانية والشعور بوجود الله من خلال التفكير، كان على المسلمين أن يتجاوزوا صيام الجسد وأن «يصوموا» بألسنتهم (تجنب الكذب والفحش والتعليقات غير المحتشمة) وبقلوبهم (تجنب المشاعر أو الأفكار السلبية). هذا النظام الروحي، كما قلنا، اقترن بمتطلبات إضافية مثل العناية والرعاية اللتين يجب أن يلقيهما الفقراء في شهر رمضان، فرمضان هو شهر القرآن وشهر السخاء والعطاء والتعاضد. وكان النبي ﷺ يهيب بالمؤمنين، من نساء ورجال وأطفال بأن يتصدقوا في نهاية شهر الصيام من أجل تلبية حاجات جميع أفراد الجماعة خلال أيام الاحتفالات التي كانوا يقومون بها، فالسعي إلى التقرب من الواحد الأحد لا يمكن أن يتحقق ويكتمل إلا من خلال التقرب من الفقراء، من خلال رعايتهم وخدمتهم يتقرب المرء من الله.

وقد رأى النبي ﷺ، في ذلك الشهر، رؤيا عجيبة محيرة ومدعاة للسرور، فقد رأى في المنام أنه دخل حرم الكعبة وقد حلق شعر رأسه وأمسك بمفتاح الحرم بيده اليمنى، كانت تلك الرؤيا شديدة الوضوح وفسرها النبي ﷺ، كما كان يفعل في مثل هذه الظروف، بأنها علامة ورسالة، وفي اليوم التالي حدث الصحابة عن الرؤيا ودعاهم إلى الاستعداد للذهاب وأداء العمرة في مكة⁽²⁾. لقد شعروا بالسرور بالدهشة على حد سواء، كيف يمكنهم دخول

أرض مكة؟ وكيف ستسمح لهم قريش بذلك؟ وكيف يتسنى لهم تجنب الصراع؟ وقد طمأنتهم ثقة النبي ﷺ الواضحة: كان من المقرر أن تبدأ الرحلة في شهر ذي القعدة، وهو أحد الأشهر الحُرْم التي لم يكن العرب يتقاتلون فيها أبداً حتى ذلك الوقت، وعلاوة على ذلك، فقد ثبت أن رؤيا النبي ﷺ صادقة، لقد قادهم حتى ذلك الوقت بهدوء وثقة، فاستعدوا للرحيل.

اشترك في الرحلة بين ألف ومئتين وألف وأربع مئة من المؤمنين. كان الخطر عظيماً، لكن النبي ﷺ لم يسمح للمعتمرين بحمل الأسلحة (عدا المعدات اللازمة للصيد وغير ذلك من حاجات الرحلة)، وأخذ معه زوجته أم سلمة — رضي الله عنها — كما أخذ نسيبة وأم هانئ — رضي الله عنهما — وهما امرأتان شهدتا بيعة العقبة الأولى، فانطلقوا وفي أول مكان للتوقف قلد النبي ﷺ الجمال التي سيُضحى بها خلال العمرة. أما أهل مكة فقد سمعوا بعد فترة وجيزة أن قافلة من المسلمين متوجهة إلى مكة بقصد زيارة الكعبة، كانت زيارة الحرم المكي لعشرات السنين أهم حق مشروع لقبائل الجزيرة، أما بالنسبة للمسلمين فقد كانت قريش تواجه مأزقاً عويصاً يستعصي على الحل، لم يكونوا يرون كيف يمكنهم إما تبرير منعهم من الدخول (وكيف يمكنهم إجبارهم على الانصياع في شهر ذي القعدة وهو من الأشهر الحرم، التي كانت الحرب محظورة فيها) أو، من جهة أخرى، كيف يسمحون لعدوهم بدخول المدينة، الأمر الذي سيضيف على المسلمين هيبةً غير مقبولة لقريش، فقررت قريش إرسال خالد بن الوليد ومعه مئتا رجل لمنع المعتمرين من الاقتراب من مكة. وجاء مخبرو المسلمين لإعلامهم بذلك، وقرروا تغيير طريقهم ليتجنبوا وضعاً

من شأنه أن يفضي حتماً إلى صدام، وقد اعتمد النبي ﷺ على معرفة أحد الصحابة بالمنطقة، فسلكوا طريقاً وصلوا من خلاله إلى مكة، على عتبة الأرض الحرام، في سهل الحديبية، في تلك النقطة توقفت ناقة النبي ﷺ «القصواء» ورفضت السير، وكما كانت عليه الحال عندما وصل النبي ﷺ إلى المدينة قبل سبع سنوات، فقد رأى في ذلك إشارة، فعليه التوقف والتفاوض مع فريق قريش بشأن الدخول إلى مكة.

فوجئت قريش مرة ثانية كلياً من موقف النبي ﷺ الذي لم يكن ينسجم مع أي من تقاليدهم الدينية أو الثقافية أو الحربية، ففي أوج قوته، جاء إلى مكة غير مسلح، وبالتالي، فإنه في واقع الأمر عرضة للخطر، مع أنه كان من الممكن للظروف أن تمكنه من تحقيق سيطرة أكبر على أعدائه، وعلاوة على ذلك، فقد دعا الناس إلى دين جديد لكنه لم يتردد في الاعتماد على احترام قواعد التقاليد العربية في حماية نفسه من هجماتهم، وبذلك وضع قريشاً في مأزق، لأنه كان عليهم الاختيار بين احترام القواعد وفقد هيبتهم (إذا سمحوا للمسلمين بدخول مكة)، وقد برهن تكتيك محمد ﷺ على أنه ناجح.

المفاوضات

كانت قريش مصممة على عدم السماح للمسلمين بأداء العمرة، بسبب ما ينطوي عليه ذلك من تداعيات ولكن أيضاً -بالطبع- لأنهم لم يكونوا يعرفون نوايا محمد ﷺ الفعلية، فقرروا إرسال مبعوث من عشيرة بني خزاعة، واسمه بديل بن ورقة، الذي لم يكن على خلاف مع أي من العشائر الموجودة، ولذا فإن بإمكانه القيام بمهمة الوسيط، فذهب إلى النبي ﷺ

الذي أكد له بأنه لا ينوي شن الحرب، بل كان يريد أداء العمرة مع أصحابه ثم يعود إلى دياره، على أنه أضاف بأنه مستعد لقتال أي شخص يعارض حقهم في دخول الحرم بحرية، مثل جميع العشائر والقبائل الأخرى، ومع ذلك، فإذا أرادت قريش المزيد من الوقت للاستعداد للسماح للمعتمرين بالدخول، فإن المسلمين سينتظرون عند الحديبية إلى أن تتم قريش استعداداتها، عاد بديل إلى مكة واقترح على قريش أن تسمح للمسلمين بالدخول، لكن اقتراحه استقبل ببرود شديد، وقد رفض بشكل خاص من جانب عكرمة، ابن أبي جهل.

وقرر أحد الزعماء واسمه عروة مقابلة محمد ﷺ والتفاوض معه والقيام في الوقت نفسه بإلقاء نظرة على من معه عن كثب ومعرفة طبيعة الحملة، فذهب إلى النبي ﷺ وبدأ يتحدث معه حسب العادات السائدة بين العشائر العربية: فخاطبه متخطياً الرسميات، على قدم المساواة، وأخذ يمسك بلحيته، كما درج على ذلك زعماء القبائل. فقابله بخشونة على تصرفه المغيرة، وهو أحد المهاجرين من مكة والذي هدد بضربه إذا استمر في ذلك السلوك، وقد دهش عروة لكنه قبل مغادرته وقف لمراقبة وزيارة معسكر المؤمنين ودهش لما شاهده من احترام وتقان المؤمنين لقائدهم، محمد ﷺ. فعاد إلى قريش وقال لهم، مثل ما قال بديل قبله، بأنه من الحكمة السماح لمحمد ﷺ بالدخول، لأنه ليس لديه أي نية لمقاتلتهم. غير أن زعماء قريش رفضوا مرة أخرى.

بينما كان عروة يقوم بمهمته، جرت محاولتان للتفاوض، فقد كان هُليس، من بني الحارث، قد جاء ليكلم النبي ﷺ. وقد عرفه النبي ﷺ من على بعد، بما أنه كان قدر احترام هليس وعشيرته للمسائل الدينية

والمقدسة، فقد أمر بأن ترسل إليه الجمال التي تم تقليدها وإشعارها للتضحية لمواجهته، وعندما رأى هليس الجمال، فهم المسألة وقرر العودة على الفور، بعد أن تأكد من أن محمداً ﷺ لم يكن ينوي في واقع الأمر سوى أداء العمرة بسلام، ولم يظل النبي ﷺ نفسه ساكناً؛ فقد كان قد أرسل إلى قريش مبعوثاً اسمه خراش، لكن عكرمة رفض أن يصغي إليه وقطع ساقه ناقته وكان على وشك ضربه عندما تدخل هليس لحمايته وطلب السماح له بالعودة إلى النبي ﷺ دون أن يصاب بأذى.

وهكذا فقد فشلت أربع محاولات للمفاوضات وبدأ أن قريشاً تزداد تعنتاً، فقرر النبي ﷺ القيام بمحاولة أخيرة، فأرسل مبعوثاً يتمتع بقدر كبير من الاحترام والحماية في مكة ومن شأن مصيره أن يكون مختلفاً عن مصير خراش وتكون كلمته مسموعة، فاختار عثمان بن عفان رضي الله عنه، الذي له صلات وعلاقات متينة في مكة ولا يجروء أحد على التعدي عليه، فذهب عثمان رضي الله عنه ولقي استقبلاً حسناً، لكنه قبل بذات الرفض: لن تسمح قريش للنبي ﷺ بأداء العمرة، أما هو فبإمكانه إذا شاء، الطواف حول الكعبة، لكن السماح لمحمد ﷺ ورجاله بالدخول لم يكن موضع بحث، فرفض عثمان رضي الله عنه عرضهم، وقد استغرقت مهمته وقتاً أطول مما كان متوقعاً، ولم تصل أخبار عنه إلى النبي ﷺ طيلة ثلاثة أيام، وسرت إشاعة بأن عثمان رضي الله عنه قد قتل، الأمر الذي جعل النبي ﷺ يحزن حزناً شديداً، إن مثل هذا العمل من جانب قريش - قتل مبعوث في شهر حرام ومقاومة حق المسلمين المشروع في زيارة الكعبة، وهو ما كان مسموحاً به لجميع القبائل - لم يعتبره المسلمون سوى إعلان جديد عن الحرب، فبعد ذلك الوقت كان عليهم أن يستعدوا للأسوأ.

بيعة الرضوان

جمع النبي ﷺ الصحابة وجلس تحت شجرة وطلب من كل المسلمين أن يبايعوه على الطاعة والإخلاص، بهذا العمل أعربوا صراحة على أنهم إلى جانب النبي ﷺ مهما كلف الأمر، كانوا قد جاؤوا لأداء العمرة، غير مسلحين، وأصبحوا يواجهون احتمالاً كبيراً بحصول قتال لم يكونوا مستعدين له، وكانت بيعتهم للنبي ﷺ تعني لهم أنهم بايعوه على عدم الفرار والمضي حتى الموت؛ لأن ميزان القوى كان ضدهم، وقد وضع النبي ﷺ نفسه يده اليسرى في يده اليمنى وقال للمؤمنين المجتمعين معه بأن ذلك يمثل مبايعة عثمان ؓ؛ لأن ذلك الأخير لم يبد أي علامة على أنه على قيد الحياة واعتبر ميتاً⁽³⁾.

على أنه ما إن انتهى الصحابة من المبايعة حتى ظهر عثمان ؓ فجأة. وقد ابتهج النبي ﷺ بعودته، فلم يكن عثمان ؓ، زوج ابنته، على قيد الحياة فحسب، لكن قريشاً لم تكن على درجة من التهور بحيث لا تحترم تقليد عدم اللجوء إلى العنف في الأشهر الحرم، وهكذا فقد بدا أن الصراع مع قريش أصبح أقل احتمالاً وقيل للنبي ﷺ إن قريشاً أرسلت مبعوثاً جديداً هو سهيل بن عمرو، لإبرام اتفاقية رسمية مع المسلمين، فقرر النبي ﷺ أن يستقبله وينظر في مقترحاته.

وكان عثمان ؓ أيضاً قد بايع النبي ﷺ. وقد فهم، كغيره، أن هذا التعبير عن الإخلاص شيء لازم في وضع ينطوي على احتمال اندلاع الحرب، على أن الظروف كانت الآن مختلفة كل الاختلاف، حيث كان محمد ﷺ يوشك أن يبدأ مفاوضات بشأن شروط السلام بين جماعته

وقريش، لقد بايعوه جميعاً وهم يتصورون أنهم يعبرون عن إخلاصهم في وضع قتالي، وهو وضع كانوا فيه أيضاً في موقف ضعيف، والآن سوف يمتحن إخلاصهم من خلال تنفيذ شروط هدنة كان موقفهم فيها موقفاً قوياً، وقد جاء وصف تلك البيعة في الوحي الذي نزل في هذا الصدد: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ (4). كان المسلمون يطالبون بحقوقهم، وكانوا يحملون رسالة كانوا متأكدين من صحتها، وكانوا قد اكتسبوا هيبة عظيمة بعد المعارك التي خاضوها في الحقبة قريية العهد، لذا فإن تساهلهم كان غير وارد.

صلح الحديبية

استقبل النبي ﷺ مبعوث قريش، سهيل بن عمرو، الذي اصطحب معه رجلين آخرين، مكرز وحويطب، بدأت المفاوضات بعيداً بعض الشيء عن الصحابة، وتمت مناقشة كل بند من الاتفاقية، مناقشة كانت تقترب بالحدة في بعض الأحيان، وقد طلب النبي ﷺ من ابن عمه، علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كتابة ما تم الاتفاق عليه أخيراً، فبدأ علي رضي الله عنه بالطبع يكتب النص مبتدئاً بالعبارة المعتادة «بسم الله الرحمن الرحيم»، لكن سهيل اعترض على تلك العبارة، قائلاً إنه لا يعرف الرحمن، وأنه يجب كتابة عبارة «باسمك اللهم»، وهي العبارة الوحيدة التي يعرفها العرب جميعاً (حتى المشركين كانوا يستخدمونها في مخاطبة إلههم الرئيس). واعترض بعض الصحابة على تغيير الصيغة، لكن النبي ﷺ تدخل وقال لعلي بأن يكتب «باسمك اللهم» (5). ثم طلب منه أن يكتب: «هذا ما صالح عليه محمد، رسول الله وسهيل بن عمرو». فاعترض سهيل ثانية: «لو كنا

نعرف أنك رسول الله لما قاتلتناك، اكتب: «محمد بن عبد الله»، لكن علياً عليه السلام الذي كان قد كتب الصيغة المألوفة رفض الرضوخ وقال إنه لا يستطيع كتابة ذلك. فطلب منه النبي صلى الله عليه وسلم أن يدلّه على المكان الذي كتبت فيه العبارة ومحاها بنفسه، ثم طلب منه أن يكتب ما طلبه سهيل بن عمرو، أي «محمد بن عبد الله». فصدّم علي عليه السلام وبقيّة الصحابة ولم يستطيعوا فهم موقف النبي صلى الله عليه وسلم. وقد شعروا بمزيد من الانزعاج أيضاً إزاء شروط الاتفاقية، حيث إنها بدت لهم سلسلة من التنازلات غير الملائمة للمسلمين على الإطلاق، كانت المعاهدة تستند إلى أربع نقاط رئيسية: (1) عدم أداء المسلمين للعمرة في تلك السنة على أن يسمح لهم بالبقاء ثلاثة أيام في السنة المقبلة. (2) وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس وكيف بعضهم عن بعض. (3) تسري شروط الاتفاقية على الفور على أي عشيرة أو قبيلة تدخل في عهد أي من الطرفين. (4) من أتى محمداً صلى الله عليه وسلم من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد صلى الله عليه وسلم لم يردوه عليه⁽⁶⁾.

وبدأ الصحابة يدركون أنه بعد توقيع اتفاقية بدت لهم أنها تنطوي على الاحتيال فإن عليهم أن يعودوا دون أن يزوروا الكعبة. وقد بلغت خيبة أمهم الذروة عندما شاهدوا وصول أبي جندل، وهو الابن الأصغر لسهيل الذي وقع اتفاقية للتو، كان أبو جندل قد اعتنق الإسلام وهرب ورجلاه لا تزالان مقيدتين بالأغلال، بعد أن كان أبوه قد سجنه منعاً له من الانضمام إلى المسلمين، فعندما رأى سهيل ابنه الهارب ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن الاتفاقية التي وقعها للتو تنص على أنه لا يجوز له استبقاؤه وأن عليه أن يردّه، واعترف

النبي ﷺ بذلك، وتم تسليم أبي جندل، الذي ناشد الصحابة بأن يساعده، إلى أبيه وأوصاه النبي ﷺ بالصبر، وقد ثار على هذا الوضع أخوه عبد الله، الذي كان قد أسلم من وقت طويل وكان من بين المعتمرين الذين رأوا المشهد، ولم يستطع صحابي آخر، عمر رضي الله عنه، ضبط مشاعره عندما لطم سهيل وجه ابنه بسلاسله، فاندفع إلى النبي ﷺ واحتج بشدة موجهاً إليه سلسلة من الأسئلة كانت تعبر عن خيبة أمله الشديدة، «أست رسول الله؟ ألسنا على حق؟ أليس أعداؤنا على الباطل؟ فلم نُعطى الدنية في ديننا؟»، وكان النبي ﷺ يجيب إجابات رصينة، لكن ذلك لم يكن كافياً لتهديئة عمر رضي الله عنه الذي ذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه وهو يستشيط غضباً طلباً لمساعدته، فأوصاه أبو بكر رضي الله عنه بأن يلزم الهدوء، حيث إنه كان يرى أن النبي ﷺ على صواب، فتمالك عمر رضي الله عنه نفسه وهداً، مع أنه كان من الواضح أنه ظل مقتنعاً بأن الاتفاقية كانت تتطوي على الإذلال.

غادر سهيل والمبعوثان الآخران المعسكر وأخذوا معهم أبا جندل الذي انهار والدموع تملأ عينيه، وشعر المسلمون الذين رأوا المشهد ببالغ الحزن وعميق الاشمئزاز، لم يستطيعوا فهم موقف النبي ﷺ الذي علمهم الشجاعة والكرامة وها هو الآن يقبل صفقة غير عادلة، الأمر الذي جعلهم يظهرون بمظهر البائس فيما كان أحدهم يلقي معاملة مهينة ومذلة، وعندما طلب منهم النبي ﷺ أن يضخّوا بإبلهم التي قلّدت وهيئت لتكون أضحيان العمرة، لم يتمالك أحد من الصحابة الاستجابة للنبي ﷺ بسبب ما شعروا من عميق الجراح والمرارة. وكرر النبي ﷺ أمره ثلاث مرات لكن أحداً لم يستجب له، كانت تلك هي المرة الأولى التي واجه فيها عصيان أمره بهذه الطريقة الجماعية والتي تتطوي على الإصرار.

شعر النبي ﷺ بالدهشة والحزن وعاد إلى خيمته وأخبر زوجته أم سلمة - رضي الله عنها - بما حدث ورفض الصحابة التضحية بالبُدن، أصغت أم سلمة - رضي الله عنها - إليه واقترحت عليه أن يتصرف بحكمة وبصمت: نصحته بالخروج وأن يقوم، دون أن يتفوّه ببنت شفة، بتضحية أضحيته، وأن يكتفي بأن يكون المثل لهم، استمع النبي ﷺ لنصيحتها التي تبين أنها كانت حسيطة، فذهب إلى أضحيته وتلا الصيغة الشعائرية وضعى بها. وعندما رأى الصحابة ذلك نهضوا الواحد تلو الآخر وقاموا بمثل ما فعل. ثم حلق النبي ﷺ رأسه وفعل مثل ذلك بعض الصحابة، بينما قام البعض بقص شعرهم أو مجرد خصلة منه.

المفاهيم الروحية وفهم معنى النصر

سرعان ما أدرك الصحابة أن أحكامهم الأولى بشأن المعاهدة كانت مخطئة كلياً وأنهم لم يقدروا النبي ﷺ حق قدره من حيث عمق روحانيته وثباته العقلي الصارم، وذكأوه البشري وعبقريته الإستراتيجية. كان يستجيب إلى الإشارات، فعندما توقفت ناقته ورفضت التحرك أدرك بحدسه أن المسلمين لن يتقدموا إلى أبعد من سهل الحديبية في تلك السنة، وقد أقنعه فشل المفاوضات الأربع الأولى وعناد قريش بوجوب تذرعه بالصبر، كان شديد الثقة بالحلم الذي رآه حيث رأى أنه يدخل المسجد الحرام وأن هذا لا بد أن يتحقق، وإن كان لا يستطيع في ذلك الوقت معرفة متى سيكون ذلك، فبيعة الرضوان التي بدت في أول الأمر أنها توحد المسلمين ضد العدو قد تحولت، كما رأينا، إلى المعاهدة على الإخلاص الذي كان يقتضي بأن يتحملوا بكرامة شروط اتفاقية سلام.

وعلاوة على ذلك، فعندما رفض سهيل صيغتي المسلمين المألوفتين اللتين تشيران إلى الله وإلى مركز محمد ﷺ بصفته رسول الله، فقد سمع النبي ﷺ وجهة نظره وتمكن، في تلك اللحظة المعينة من تحويل منظوره ورؤية الأشياء من وجهة نظر محاوره، فما قاله سهيل كان صحيحاً تماماً من وجهة نظره، كان من البدهي في الواقع أنه لو اعترفت قريش بمركزه بصفته رسول الله، لما قاتلته، لذا، فإن اتفاقية تستند إلى المساواة لا يمكن أن تنص على عنصر يمثل في الواقع الأمر اعترافاً بما كان أحد الطرفين يعتبره صحيحاً ويناقض في الوقت نفسه موقف الطرف الآخر، أما الصحابة الذين كان توقيهرهم للنبي ﷺ بالغ الشدة فلم يتمكنوا على الفور من سماع حقيقة الطرف الآخر، لكن موقف النبي ﷺ وطريقته المعقولة في نظراته إلى الاتفاقية كانت تنطوي على درس روحي وفكري. فالمسألة هي أن موقف القلب من الحقيقة - الروحانية العميقة - يجب ألا يسمح له أبداً بأن يتحول إلى مسألة عاطفية تنطوي على عى عاطفي، يجب الرجوع دائماً إلى العقل لتحليل المواقف وتلطيف ردود الفعل والمساعدة على إقامة علاقة يقظة ومتماسكة بشأن موقف الطرف الآخر، إن ما بدا على أنه تنازل غير مقبول من وجهة نظر إيمان المؤمنين كان عادلاً ومنصفاً من وجهة النظر المزدوجة لعقلانيات كل من الطرفين اللذين أبرما المعاهدة.

لم يسع محمد ﷺ إذلال قريش بغية إنقاذ شرف المسلمين وهيبتهم، أو حتى استغلال الوضع السياسي الجديد الذي انبثق عن النصر الذي أسفرت عنه معركة الخندق، فالموافقة على عدم دخول المسجد الحرام في تلك السنة أخذت بعين الاعتبار هشاشة قريش وحافظت لها على

هيبتها، وهذا أدى إلى سلام طويل الأمد، وقد كان من المقدر لذلك السلام الذي أخذ بالاعتبار المصالح العامة للمعسكرين، أن يتحول إلى مصلحة المسلمين، فالفقرات التي نصت على رد الذين يهاجرون إلى المدينة وتوفير الملاذ للمسلمين الذين يغادرون المدينة ويذهبون إلى مكة لم تؤثر إلا هامشياً على الجماعة الإسلامية، وإيمان الإنسان الذي يأتي من مكة ويرده المسلمون إلى عشيرته يجب ألا يتأثر - رغم المعاناة - من هذا النفي المفروض بالقوة، وخلافاً لظاهر الأمور، التي بدا أن حالة أبي جندل تؤيدها، فإن محمداً ﷺ لم يقدم أي تنازل يذكر بشأن هذه النقطة.

لقد مكن توكل النبي ﷺ على الله، الذي اقترن بثبات فكري صارم وذهن مرهف حاد بشكل استثنائي، من إرساء قواعد هدنة عشرة أشهر مع وعد بزيارة المسجد الحرام في العام المقبل، لكن معظم الصحابة، لاسيما عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لم ينظروا إلا إلى النتائج الآنية وشعروا بأن هذا ينطوي على إذلال لا يمكن أن يعتبر إلا هزيمة للمسلمين، وكما كان حال الكثيرين غيره، فقد ندم على رد فعله العنيف على النبي ﷺ، لكنه ظل على قناعة بأن الاتفاقية كانت استسلاماً لقريش. وفي طريق العودة. تم إبلاغه بأن النبي ﷺ استدعاه، كان يخشى من أن يكون النبي ﷺ قد أرسل في طلبه ليوبخه على موقفه غير اللائق، أو، الأسوأ من ذلك، ليقول له بنزول آيات مختلفة كل الاختلاف عما كان من المحتمل أن يتوقعه، وقد جاء في الآيات: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (8). ثم ذكر بيعة الرضوان:

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (9). كل هذا قد جاء في ضوء رؤيا محمد ﷺ التي كانت صادقة: ﴿لَقَدْ صَدَقَ

اللَّهُ رَسُولُهُ الرَّءُفُ بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٠﴾.

لقد تم عرض أحداث الماضي قريب العهد بطريقة مختلفة كل الاختلاف مع منظور الصحابة لها: فبيعة الرضوان للاستعداد للقتال كانت في الحقيقة تعهداً بالإخلاص للسلام وتم تصوير الهزيمة الظاهرة على أنها ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾، وأن الحلم الذي بدا أنه أجهض على أنه مؤكد في المستقبل ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ لم تفهم الغالبية العظمى من المسلمين أو لم يروا أو لم يستطيعوا إدراك الدلائل والآمال التي أتاحها الاتفاقية؛ لذا، فإن توقيع الاتفاق كان، مرة أخرى، لحظة متميزة لتعلم دروس روحية وربما مع درس استثنائي بشأن قيمة الذكاء وصفاء الرؤية، كان الإصغاء والقدرة على تغير وجهة النظر واحترام كرامة الآخر وبعد النظر بعضاً من الصفات التي أظهرها النبي ﷺ والتي أسهمت في رسم دوره كقدوة للمسلمين.

كما كان قدوة أيضاً من منطلق آخر في حياته: عندما رفض الصحابة التضحية بالجمال، عاد إلى زوجته أم سلمة - رضي الله عنها - التي أصغت إليه وواسته، فأظهرت له ثققتها واقترحت عليه الحل لمشكلته. فذلك الحوار وذلك التفهم والإصغاء يعبران عن صميم جوهر موقف النبي ﷺ من زوجاته، وكما جرى قبل عدة سنوات مع خديجة - رضي الله عنها - فإنه لم يتردد أبداً في الإسرار إلى زوجاته، واستشارتهن والتحدث إليهن واعتماد آرائهن، ففي الوقت الذي كان فيه مستقبل الجماعة بأسرها

يتحدد من خلال الرؤى والتعهدات بالولاء واتفاقيات السلام، فقد عاد إلى جانب زوجته مرة كإنسان بسيط، أخبرها بحاجته إلى الحب والثقة والنصح - وهذا قدوة لجميع البشر.

احترام العهود

كان المسلمون قد رجعوا إلى المدينة وعادت الحياة اليومية إلى مجراها في جو أقل توتراً بكثير مما كان عليه الوضع سابقاً، فقد أتاح لهم الهدنة خفض حذرهم من الخارج وإعطاء المزيد من الاهتمام لشؤون الجماعة اليومية، وأخذ عدد الداخلين في الإسلام يزداد وكان يتعين مواصلة التخطيط والتنظيم لدمجهم وتعليمهم الإسلام، وقد انضمت شخصيات ذات شأن في الجزيرة إلى المئات من الناس العاديين الذين دخلوا الإسلام في المدينة أو الذين أتوا ليستقروا في المدينة، فعلى سبيل المثال، هاجر أخو عائشة - رضي الله عنها - عبد الكعبة، بعد وفاة أمه، أم رمان، التي أثرت وفاتها على أبي بكر رضي الله عنه تأثيراً عميقاً، وغير النبي صلى الله عليه وسلم اسم عبد الكعبة إلى عبد الرحمن: كان قد درج على تغيير الاسم عندما يكون للاسم الأصلي معنى غير سائب أو يشير إلى موقف يعتبره الإسلام محرماً، وهكذا فقد كان معنى عبد الكعبة يتعارض مع مبدأ الإسلام المتعلق بعبادة الله وحده. وفي حالات أخرى، كان باستطاعة المسلمين الإبقاء على الاسم الأصلي، وهو ما كانت تختاره الغالبية العظمى منهم، فلم يكن المسلمون الأوائل يتصورون أبداً شيئاً مثل «الأسماء الإسلامية» التي هي من أصل عربي حصراً، بل إن ما كان يشغلهم هو العكس: كان عليهم تجنب بضعة أسماء تنطوي على معان مخالفة بوضوح للتعاليم الإسلامية، والسماح باختيار

غير مقيد لمختلف أنواع الأسماء الأخرى، من جميع اللغات والأصول، كان لديهم أسماء بالغة التنوع من أصل عربي أو فارسي أو بيزنطي، ولم يكن ذلك يشكل أي مشكلة على الإطلاق بالنسبة للنبي ﷺ ولصحابته.

خلال هذه الأشهر التي جرت فيها الإدارة والتنظيم الداخليين، واجه المسلمون حالة أخرى من تسليم الفارين، فقد جاء أبو بصير إلى المدينة من مكة وطلب من محمد ﷺ اللجوء، لكن النبي ﷺ الذي كان ملتزماً التزاماً دقيقاً بشروط الاتفاق الذي وقعه، فلم يكن في وسعه أن يسمح له بالبقاء، وعندما جاء مبعوث من قريش، يصحبه أحد الرقيق واسمه كوثر ليطلب رد أبي بصير لم يسع النبي ﷺ سوى الاستجابة للطلب. ففادروا ومعهم أبو بصير كأسير، بينما أوصى محمد ﷺ وأصحابه أبا بصير بالصبر، وفي وقت مبكر من رحلة العودة استغل أبو بصير غفلة من حراسه وقتل مبعوث قريش، ففر الرقيق فزعاً وعاد إلى المدينة وسرعان ما انضم إليه سجينه السابق، أراد محمد ﷺ أن يعيدهما ثانية إلى مكة، لكن الخوف بلغ من كوثر درجة كبيرة حتى أن النبي ﷺ لم يكن لديه حل يتيح له الوفاء بعهده غير أن يطلب من أبي بصير مغادرة المدينة (إذ إن الاتفاق كان ينص على عدم السماح له بالبقاء). على أنه لم يكن يجب عليه التأكد من عودته إلى مكة، إذ إنه لم يكن يوجد حارس يأخذه إليها، فأمره النبي ﷺ بالمغادرة طبقاً لنصوص المعاهدة وأبدى ملاحظة فيها تورية لأصحابه: «لو كان معه رجال!»⁽¹¹⁾ ولم يعد أبو بصير إلى مكة، بالطبع: واستقر به المقام في إحدى الطرق المؤدية إلى الشمال التي كان تطرقها القوافل، لاسيما قوافل قريش. وسرعان

ما انضم إليه مسلحون آخرون من الذين هربوا من مكة وسمعوا قصته، وقرروا مهاجمة القوافل التي تسلك الطرق الشمالية⁽¹²⁾. وقد ازداد عدد جماعة المسلمين وازداد عدد الهجمات وفعاليتها حتى أن قريشاً ذاتها طلبت من النبي ﷺ أن يقبل أبا بصير ورجاله وجميع المهاجرين الآتين من مكة، وهكذا فقد نجحت خطتهم واستقبلهم النبي ﷺ، بناء على رغبة قريش في تعليق مفعول تلك الفقرة من المعاهدة، وتجدر الإشارة إلى أن النبي ﷺ رفض أن يرد النساء (على سبيل المثال، أم كلثوم بنت عقبة) تحت أي ظرف من الظروف، لأن المعاهدة لم تذكر سوى الرجال: ولم تعترض قريش على ذلك.

إلى جميع الحكام

تضاعف عدد المسلمين خلال السنوات التي أعقبت المعاهدة، فخلال أشهر الهدنة قرر النبي ﷺ إرسال رسائل إلى جميع حكام الإمبراطوريات والممالك والأمم المجاورة.

وهكذا فقد استلم نجاشي الحبشة رسالة جديدة من النبي ﷺ قبل اعتناقه الإسلام ووافق على أن ينوب عن النبي ﷺ في عقد قرانه على أم حبيبة، التي، كما ورد آنفاً، تخطى عنها زوجها في الحبشة، وكتب محمد ﷺ أيضاً إلى كسرى، ملك فارس، وإلى هرقل، إمبراطور الروم، وإلى المقوقس، حاكم مصر (الذي أرسل إلى النبي ﷺ جارية قبطية، ماريّا، كهديّة)⁽¹³⁾ وإلى منذر بن سوي، ملك البحرين؛ وإلى الحارث ابن أبي شمر الغساني، الذي كان يحكم جزءاً من الجزيرة العربية حتى سواحل بلاد الشام، كان محتوى الرسائل واحداً تقريباً: فقد

عرف النبي ﷺ عن نفسه بأنه «رسول الله» للذين أرسل لهم الرسائل وذكرهم بوحداية الله ودعاهم إلى الإسلام، وفي حال رفضهم فإنهم سيتحملون المسؤولية أمام الله لإبقاء شعبهم في ضلال.

اختلفت ردود الملوك والحكام على تلك الرسائل المختلفة: فبعضهم (مثل النجاشي ومنذر بن سوي) قبلوا الرسالة، وبعضهم الآخر (المقوقس وهرقل) أظهر الاحترام دون الرغبة في القتال أو اعتناق الإسلام، وآخرون (الحارث ابن أبي شمر الغساني، على سبيل المثال) رفضوا الرسالة وهددوا بمهاجمة المسلمين، على أن الرسالة أصبحت معروفة للجميع وأصبحت الجماعة الإسلامية مستقرة الآن في المدينة، معترفاً بها بهويتها الدينية، وتحظى بالاحترام بوصفها قوة إقليمية، واعتبر زعيمها، محمد بن عبد الله، إما نبياً كان من المقدر أن يتسع حكمه بمشيئة الله، أو كملك قوي يخشى جانبه ويتعين احترامه والخوف منه.

لقد كانت هدنة الحديبية نصراً حقيقياً وفتحاً للعالم: كان القتال قد استنفذ كل طاقة الجماعة التي كانت تسعى إلى حماية نفسها وتقاوم لتظل على قيد الحياة، أما الآن، فقد تغيرت الأحوال، وفي ذلك الجو السلمي، أصبح بإمكان النبي ﷺ أخيراً أن يبلغ مضمون رسالة الإسلام: مبدأ التوحيد الذي يحرر البشر من الانشغال المحتمل بالمصالح والسلطات المؤقتة، ليوصلهم إلى احترام التعاليم الروحية والأخلاق والقيم التي يجب أن يخلصوا لها، كانوا حبيسي الحاجة إلى الدفاع عن أنفسهم، مقيدين بضرورة دفع الأخطار عن أنفسهم، فدافعوا عن حياتهم وسلامتهم لكن لم يكن لديهم سبيل التعبير عن مضمون ومعنى ما كانوا يؤمنون به، كان

السلام، الذي أصبح سائداً في كامل الجزيرة، قد غير الوضع: أخذت تزداد أعداد العشائر التي أصبحت الآن قادرة على استيعاب رسالة الإسلام، فقد دخل فيه بعضهم وأظهر آخرون احتراماً له دون الدخول فيه؛ وقاومه آخرون ولكن مع وعي تام، وليس لمجرد علاقات السيطرة والثروة والسلطة.

خيبر

على أنه ظل حصن أخير يمثل تهديداً خطيراً لأمن الجماعة الإسلامية بعد توقيع معاهدة الحديبية، كان هذا الحصن يتمثل في مدينة خيبر التي استقبلت الكثيرين من المهاجرين على إثر انتصارات المسلمين السابقة. كانت خيبر قوة إقليمية يخشاها الجميع وبدأ أن مهاجمتها غير موضوع بحث لأن حصونها وأسلحتها وثرواتها أرقى بكثير مما يمكن لأعدائها، بمن فيهم المدينة، أن يأملوا في قتالها والتغلب عليها، وكان زعماء خيبر الذين استرشدوا بنصائح أفراد بني قنيقاع وبني النضير وبني قريظة، يكون العداء لوجود محمد ﷺ في المنطقة ولم يتركوا مناسبة لإظهار ذلك وإلحاق الأذى بمصالح جماعته أو لفرادى جماعته كلما سنحت لهم الفرصة.

قرر النبي ﷺ إعداد حملة ضد خيبر، لكنه كان مصمماً على السرية حتى اللحظة الأخيرة، كي لا ينتبه العدو، وفي حين أنه كان بإمكان خيبر الاعتماد فقط على أربعة عشر ألفاً من الرجال، إلا أن محمد ﷺ قرر الذهاب إلى هناك بجيش مؤلف من ألف وأربع مئة فقط (مع أنه بإمكانه حشد عدد أكبر من ذلك). وعند اقترابه من المدينة ليلاً، دعا إليه دليلاً كان يعرف المنطقة معرفة جيدة وعسكر بين اثنين من الحصون: بهذه الطريقة استطاع قطع الاتصال بين أهل خيبر وحلفائها من غطفان،

وعند طلوع الفجر دهش سكان الحصنين وساد الخوف فوراً بين صفوفهم، واستمر الحصار عدة أيام، كان محمد ﷺ ورجاله يجمعون خلالها المعلومات التي تمكنهم من وضع أفضل خطة لإجبار العدو على الاستسلام، وقرروا مهاجمة القلاع الواحدة بعد الأخرى، ابتداءً بالأكثر انكشافاً والأكثر هشاشة، وقد نجحت الطريقة نجاحاً كبيراً، ولم يمض وقت طويل حتى سقطت القلعة الأولى، وجرت مناقشة شروط الاستسلام لكل حصن على حده، ولكن كان يطلب من المهزومين في معظم الحالات ترك ممتلكاتهم والرحيل مع نسائهم وأطفالهم.

وقاوم الحصن الرئيس الأخير قرابة أربعة عشر يوماً لكنه استسلم في آخر الأمر، إذ إن حصار المسلمين كان خانقاً ولم يترك أي أمل بالانتصار، ثم استسلم الحصنان الباقيان وجرت المفاوضات بشأن شروط استسلامهما. ووافق النبي ﷺ على السماح للسكان بالبقاء والاهتمام بمزارعهم وبساتينهم، على أن يدفعوا للمسلمين ضريبة دورية عن منتجاتها، فبعد الانتصار على كافة الحصون، استطاع النبي ﷺ أن يجيّد آخر عدو رئيس له في المنطقة.

كان من بين الأسرى صفية ابنة حُيٍّ (كان حُيٍّ هو المسؤول عن خيانة بني قريظة). لم تكن صفية مثل أبيها على الإطلاق وكانت تحاول فهم تعاليم النبي ﷺ. كانت تقية ولم تكن تشعر بالعداء نحوه مثل أهلها، وكان النبي ﷺ قد سمع عن هذه المرأة وروحانياتها، ولم تتردد في أن تخبره عن رؤيتها التي قرنت مصيرها بمصير المدينة، وقد أصغى إليها

النبي ﷺ ثم خيرها، بين أن تبقى على يهوديتها وتعود إلى أهلها أو أن تدخل في الإسلام وتتزوجه، فقالت: «أختار الله ورسوله!» وتم الاحتفال بالعرس بعد مدة وجيزة.

كانت تلك السنة السابعة للهجرة (628م) مرحلة جديدة، فقد ساد السلام الآن في المنطقة ولم يعد المسلمون يخشون الهجمات من الشمال. وقد مكنت الاتفاقيات التي نظمت علاقات القبائل والعشائر، أو التجارة بصفة عامة، المسلمين من الاستقرار بأقصى درجة من الأمان. وكان لتعدد زواج النبي ﷺ علاقة بذلك الوضع: فقد كانت بعض زوجاته من عشائر أصبحت في واقع الأمر، أقارب للنبي ﷺ ولذا فقد عدوا أنفسهم حلفاء طبيعيين له، ومن ثمَّ بدأ أن الجماعة الإسلامية ذاتها أصبحت منيعة مرهوية الجانب، ففي خلال ثمان سنوات، لم تستقر في مدينة جديدة، المدينة فحسب، بل ضمنت لنفسها مركزاً لا يوازيه مركز فضلاً عن الهيبة الإقليمية.

